الفصل الرابع

الأخلاق والشريعة

أصول الفقه:

لعلم الأخلاق في الإسلام أصوله الفقهية. ومصادر أصول الفقه هي:

- القواعد والمقاييس الإلهية التي جاء بها القرآن الكريم.
- مبادئ القرآن أي «المقاصد».
- السنة النبوية.
- الفقه الذي انبثق عن القياس.
- إجماع الفقهاء. وفي هذا السياق قال الرسول الكريم:

«لا تجتمع أمتي على ضلالة».

سنن القرآن الكريم:

بالرغم من أن القرآن الكريم هو بالدرجة الأولى كتاب أخلاقي ـ ديني لكنه يتضمن حوالي 200 آية كريمة ذات طبيعة معيارية (من أصل أكثر من 6200 آية). وهذه تنظم بالدرجة الأولى مسائل عائلية وقضايا الإرث في كثير من تفاصيلها.

بالإضافة إلى ذلك توجد نظم ذات طبيعة قانونية، من بينها قواعد بينة من أجل المحاكمات الجنائية والمدنية وبضع آيات تتعلق بأحوال الدولة والاقتصاد وقانون العقوبات المادي.

هذه المقاييس القليلة التي ليست تحت التصرف، وكذلك القواعد المعيارية الأصلية الواضحة أيضاً في السنة، هي فقط التي يمكن أن نطلق عليها اسم «شريعة» التي تعني حرفياً «الطريق إلى المسقى» باعتبارها «شرع الله» أي صدرت عنه بشكل مباشر. ومن الخطأ بصورة خاصة أن ننحو إلى فهم الشريعة على أنها مجرد قانون جنائي.

مبادئ القرآن الكريم:

للمبادئ العامة في القرآن الكريم «المقاصد» الناتجة عن تحليل فهمه وقيمه الأساسية الأهمية نفسها لتطوير الشريعة الإسلامية. ومن هنا يمكن استنباط أركان نظام أخلاقي مثل: العدالة والمساواة بين جميع الناس، والمصلحة العامة قبل الخاصة، وتحمل المسؤولية، والشعور الأسروي، وتقدير الخير والأمانة والإخلاص، والاستقامة والنزاهة، وحسن السريرة، والنظافة والجرأة، والعطف، والاستعداد للتضحية والصبر، والاجتهاد والتواضع والقناعة وما شابه ذلك. وتلعب هذه المبادئ دوراً حاسماً عند تفسير المقاييس الإسلامية أو تطويرها على خلفية المسائل المعاصرة.

السنة النبوية:

يعود اصطلاح «سنة» إلى ما قبل ظهور الإسلام، وكان التعبير عنه بعبارة «أسوة حسنة». وقد ورد أيضاً في القرآن الكريم حيث الحديث عن سنة الله ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب ـ 62). أما الآن فيستخدم اصطلاح سنة بمعان عدة، منها الإقتداء بالرسول الكريم، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ (الأحزاب ـ21)، وتستخدم هذه العبارة أيضاً لمجرد السلوك المستحب (مثل الصلوات الطّوعية الإضافية) وكذلك تعني أيضاً نقيض التجديد غير المسموح به أو «البدع»، وطالما ورد في القرآن الكريم ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (الأنفال ـ46)، وقد كُلِّف الرسول بالقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ (آل عمران ـ 31). وعلى هذا يقوم مبدأ أن ما تركه الرسول الكريم يطلق عليه «سنة» بالمعنى المحدد، وهي المصدر الكتابي الثاني لنظام العبادة والأخلاق في الإسلام. وهي مثبتة في الحديث (جمعها أحاديث) أي السنة القولية والسنة الفعلية والسنة التقريرية.

واليوم تعد السنَّة والحديث عملياً اصطلاحين متلازمين بالرغم من أنه أول ما يخطر ببال المرء عند ذكر الحديث هو القول، وعند ذكر السنة أول ما يخطر هو السلوك.

عدة آلاف من هذه الأحاديث تم جمعها في مجلدات من قبل الجيل الرابع بعد الرسول الكريم. ومن بينها تتمتع ستة بالثقة، فما ورد فيها يكاد يكون موثوقاً كلياً وهي: مجموعة البخاري (توفي عام 870)،

ومسلم (توفي عام 875)، ابن ماجة (توفي عام 886)، أبو داود (توفي (888)، الترمذي (توفي 892)، النسائي (توفي 915) وقد أطلق عليها اسم «الصحاح الستة»، وهذا يعني أن ما وضعه آخرون لم تثبت صحته، ولكن يمكن الظن بصحته.

وعند معالجة مسألة «السنّة» يجب أن نضع الأمور التالية نصب أعيننا:

1. ما من أحد يمكن أن يكون مسلماً إذا ما اقتصر اهتمامه على القرآن الكريم فقط؛ لأن المكونات الأساسية للعقيدة والأخلاق الإسلامية والممارسات الدينية ـ وكذلك أيضاً فهم القرآن ـ تعتمد على السنة النبوية، ولذلك فمن الصواب أن نتحدث عن الغالبية العظمى من المسلمين الأصليين «المسلمين السنيين» وهم الذين ينضوون تحت لواء السنة.

2. إن السنة النبوية بالإضافة إلى القرآن الكريم، هي مصدر ثانٍ «من مصادر التشريع، وهذا يعني أن وظيفة السنة هي شرح القرآن أي بيان له، ولا تعني في أي حال من الأحوال تغييره. فالقرآن فوق السنّة، وليس العكس، فيما لو حدث تضارب بين الاثنين. في هذه الحالة يجب على المرء أن ينطلق من أن الحديث المشكوك فيه ليس صحيحاً. (هناك مجموعة كبيرة من الفقهاء تنطلق دائماً من أن السنّة قد «غيرت بعض أحكام» القرآن في حالات معينة).

3. إن مكانة السنة إنما تقوم على أن الرسول قد وافق القرآن الكريم، وقد أُمر المسلمون في القرآن أن يطيعوا أمر الرسول ﷺ في الأمور الدينية والأخلاقية. أما فيما يتعلق بأمور أخرى دنيوية كمجالات الطب أو الحرب أو الزراعة فلهم الخيار.

4. كان الرسول ﷺ ينهى بين الحين والآخر عن تدوين السنّة للحيلولة دون حدوث خلط بينها وبين النص القرآني (للسبب نفسه تقوم المدارس القرآنية بتدريس القرآن فقط دون السنة). ولذلك لم يكن هناك سوى القليل من الأحاديث المدونة في حياة الرسول وهي الأحاديث التي دوّنها عبد الله بن عمر (مفقودة مع الأسف). وهكذا تمت كتابة السنة بعد وفاة الرسول، وبالتالي فهي بطبيعة الحال لا تتمتع بالمقام الذي يمثله القرآن الكريم من حيث الدقة والصحة.

5. جرى تدوين الأحاديث النبوية بكل دقة وعناية. وبشكل خاص تم التحقق فيما إذا كانت هناك سلسلة من الرواة تعود بالفعل إلى عهد الرسول مُؤَلَّفة من شخصيات موثوقة (ما من سلسلة منها زادت عن تسعة أعضاء). ومن أجل هذا الهدف نشأ فرع من العلوم اسمه «علم الجرح والتعديل» علم الرواة من رجال ونساء. وكعلماء تاريخيين دقيقين قدم جامعو الحديث المسلمون مستوى لم يكن قد بلغه أحد بعد في تاريخ السيرة.

وفي الوقت نفسه يمكن عدم استبعاد بعض الشكوك بأجزاء من السنّة؛ وذلك للأسباب التالية:

أ- في المجتمع الإسلامي الأول لم يكن قد وجد اصطلاح «السنة النبوية» بعد. وكما نستنتج من مجموعة الأحاديث المسماة «الموطأ» التي وضعها الفقيه مالك بن أنس وهو من المدينة المنورة، كان الفقه يقوم على القرآن الكريم والعُرف، طالما هذا الأخير لا يتناقض مع القرآن. تطورت هذه «السّنة الحيوية» إلى درجة أن أصبح من العادة الحديث

عن سنّة الخليفتين أبي بكر وعمر، إلى أن جعل الإمام الشافعي في نهاية القرن الثامن الميلادي السنّة تقتصر على ما روي عن النبي فقط، بعد أن كان بعضها قد نُسب، عن طيب نية، أو بغير حق، إلى النبي.

ب - تفادى جامعو الحديث المشهورون، بالإضافة إلى سلسلة الرواة، إخضاع مضمون المادة المنقولة «المتن» للانتقاد، ما عدا الحالات التي تبدو غير ممكنة، أو تتضمن تناقضاً، إذ لم تتوفر لهم آنذاك الوسائل المتاحة حالياً للتحليل اللغوي أو النقد التاريخي؛ ولذلك تتضمن مجموعاتهم بعض التزوير الذي لا يراد به شر؛ لأنها تتعاطف مع تيار سياسي أو ديني أو جماعة من الجماعات الإسلامية الأولى، أو تتخذ موقفاً ضدهم.

لذلك يرى مستشرقون غربيون مثل: إيغناز غولدتسيهر Ignaz Goldzieher وجوزيف شاخت Josef Schacht وجوب ترك السنّة كما هي؛ لأنهم لم يدركوا كيفية تخزين الذكريات الدقيقة في الذاكرة آنذاك. ولا يمكن قياس قدرة ذاكرة الذين عاشوا في ذلك الوقت إلا بمعرفة قدرة الأطفال في سن العاشرة في عصرنا هذا على حفظ النص القرآني عن ظهر قلب.

لم يعط المستشرقون المذكورون مسألة الرقابة الاجتماعية - التي مارسها العديد من رواة الأحاديث النبوية على بعضهم - حق قدرها. فلم يكن من السهل تمرير حديث مزوّر. ولكن لا نريد هنا أن نقول إن بعض الأحاديث ليست بحاجة إلى إعادة نظر في صحتها من وجهة نظر معاصرة، ولكن يجب أن يترك هذا الأمر إلى عهدة العلماء المسلمين.

بالنسبة للحقيقة اليومية فلا أهمية لمسألة فيما إذا كان المختصون في العلوم الإسلامية يعتبرون أن السنّة قائمة على أسس متينة؛ لأن السنة النبوية قد تغلغلت على مدى أكثر من 1400 عامٍ عبر كل مساحات العالم الإسلامي. ونرى رموزاً لها في الشعر والأدب والحكم والأمثال إلى آخر تفرعات الحضارة الإسلامية، حتى العبارة المنسوبة خطأً إلى الرسول، والتي نصها: «اطلب العلم ولو في الصين» يمكن أن يكون لها أثر إيجابي.

الشريعة الإسلامية:

انطلق فقهاء المسلمين منذ البداية بأنه في آخر المطاف هناك مصدر قانوني واحد هو الله. ومن هنا فإن الواجب الرئيس للفقيه المسلم ليس سن القوانين، بل اكتشافها في القرآن والسنّة. وفي حال لم يجد في كليهما قوانين قابلة للتطبيق بشكل مباشر، يسمح المشرع المسلم بإيجاد مثل هذه القوانين، ولكن على أساس مبادئ القرآن والسنّة من خلال القياس المأخوذ من هذه المصادر مع مراعاة المعايير التالية:

- المصلحة.
- الضرورة.
- العرف.
- الحاجة.
- الاستصحاب.
- الاستحسان.

لا يتطلب الأمر خيالاً واسعاً لتصور أن الفقه الإسلامي ـ بفضل هذه الطريقة المنهجية ـ يمكن أن يكون ديناميكياً ومرناً ومدركاً للمسألة، طالما أن الفقهاء يحتفظون بالجرأة والنظر والإحساس بالأمور الأساسية وبغنى الومضات الفكرية.

حتى وإن تم تدوين القوانين الحديثة ـ سواء المتعلق منها بحركة السير ومراقبة البورصات أو تكنولوجيا الجينات ـ يجب توفر قابلية إرجاعها إلى القرآن والسنّة. بهذا المعنى فإن كل تشريع في دولة مسلمة هو إسلامي. ولا يُعتبر إصدار القوانين ساري المفعول إلا إذا توافق مع الشريعة. عملياً تطور على هذا الأساس بناء فقهي معقد جداً لا يقل في مدلوليته ونظرته الثاقبة عن أي نظام قانوني آخر ويحظى بالاعتبار على المستوى العالمي. حتى إنه يمكن الحديث عن التشريع الإسلامي كأول مشروع لأحكام دولية.

الشيء المميز بالنسبة لتطور التشريع الإسلامي الذي لم يستند إلى القانون الروماني، هو وجود المذاهب الفقهية الخاصة والمتساوية بشكل متزامن، وهذه أبدت تسامحاً تجاه بعضها بالرغم من أنها غير متفقة في الكثير من النقاط المهمة. ولا تزال حتى الآن سبعة من المذاهب التي تعود إلى شخصيات كبيرة يطلق عليها اسم الإمام:

- عبد الله بن عباد (القرن السابع الميلادي)
- زيد بن علي (متوفي عام 740 م) وهو مؤلف أقدم كتاب موجود حتى الآن في الفقه الإسلامي.

- جعفر الصادق (متوفى عام 765 م) مؤسس مذهب الفقه الشيعي.
- أبو حنيفة (متوفى عام 765م)
- مالك بن أنس (متوفى عام 797 م)
- محمد ادريس الشافعي (متوفى عام 820 م) وهو الأكثر نبوغاً والفقيه الذي جعل من الفقه علماً.
- أحمد بن حنبل (متوفى عام 855 م)

وهناك مذهب فقهي آخر هو الظاهري الذي لا يقر إلا بالنص الحرفي للقرآن الكريم، دون أي تأويل آخر، ولكنه لم يستمر نتيجة راديكاليته. وكان الأندلسي ابن حزم (متوفى عام 1064م) أهم من يمثل هذا المذهب.

نرى حتى أيامنا هذه أن منطقة شمال إفريقية تتبع المذهب المالكي، وجنوب شرق آسيا المذهب الشافعي، وتركيا الحنفي، والمملكة العربية السعودية الوهابي، وإيران الجعفري، واليمن الزيدي، وعمان العبادي.

لكن هذه التعددية في الإسلام ليست بذات أهمية كبرى، خاصة وأن التشريع الإسلامي الكلاسيكي قلما بقي مستخدماً بشكل مباشر في أيامنا هذه.

يخضع المسلمون الذين يعيشون في الغرب لقوانين الدول التي يعيشون فيها دون المساس بجوهر عقيدتهم وممارساتهم في العبادة. وليس مطلوباً من الدول القومية الغربية أن تسمح للأقليات الإسلامية

الموجودة فيها بسن تشريعاتها على النموذج الإسلامي (على غرار قانون النبلاء في ألمانيا الذي استمر حتى عام 1919)، فهؤلاء يريدون أن يُعاملوا على مبدأ الإقليم، الذي يخضع فيه كل شخص للقانون نفسه. ومن هنا لا يمكن للمسلمين في الغرب أن يطبقوا تشريعهم الإسلامي ـ مثل تحريم الفائدة، والتشريعات المتعلقة بالميراث والأسرة ـ إلا إذا أمكن ذلك من خلال الوصية أو العقد.

وبما أن هذه الحلول غير ممكنة التطبيق قضائياً في أغلب الأحيان، فإنهم يفترضون على الأقل تفاعلاً صامتاً من قبل جميع المعنيين.

أنماط أخلاقية:

تميز الشريعة الإسلامية وأحكامها بين السلوك، والواجب والحرام. وهكذا لا يوجد إعفاء من الصلاة ولا مغفرة للقتل. لكن يفرق المسلمون بين الأفعال التي تعد «سنة» أو مرغوبة، وبين تلك غير المرغوبة، التي يجب تفاديها، أي «مكروه»، وبين السلوك الذي يعد حيادياً من حيث الناحية الأخلاقية أي «مباح». من حيث الكم يجب أن يكون المجال الحيادي هو الأوسع، ومن حيث المبدأ كل شيء في الإسلام مباحاً ما لم يكن تحريمه واضحاً. حتى إن القرآن الكريم يحذر من المحاولة المضللة للحد من حرية التصرف لدى الإنسان انطلاقاً من تقوى باطلة، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾ (المائدة -101) وأخيراً يريد الإسلام أن يجعل الحياة يسيرة وليست عسيرة، ﴿**.... يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ....**﴾ (البقرة ـ185)، وكذلك ﴿**... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾ (الحج ـ78).

ومع ذلك فإن المسلم المدرك يتجنب ما نهي عنه ويفعل ما أُمر به، وتميل الغالبية في الحركات الإسلامية ذات التوجه المتزمت إلى البديل الأسود ـ الأبيض أي الخير والشر.

الأوامر والنواهي في الإسلام:

ليس من السهل أن نعدد هنا ما تسمح به الأخلاق الإسلامية للمسلم، أو توصي به، أو تأمر به.

الأهم هو أن لا ننسى أنه لا يجوز في المفهوم الإسلامي تقييم الأفعال إلا بالنية المقرونة بها. فالأخلاق الإسلامية تتناسب في كل الأحوال مع الحس الأخلاقي والمتطلبات المعهودة في كل الحضارات الكبرى؛ لأن أموراً مثل: عدم المساس بالحياة والشرف وجسد وملكية الناس، وأن يكون المرء منطقياً وطيباً وصادقاً ونظيفاً وشريفاً، قصير اللسان، جديراً بالائتمان ونشيطاً وغيرها من صفات لا تقتصر ـ ولحسن الحظ ـ على الإسلام فقط.

ليس في الدين الإسلامي قائمة بالوصايا العشر، بالرغم وجود آيتين بذلك، ﴿**قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا به شَيْئًا وَبالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم به لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾. (الأنعام151-152).

كمدخل إلى الإسلام يكتفى بالتنويه إلى بعض القوانين الخاصة به. أما الأخرى فنجدها في المواقع المناسبة في فصول أخرى من هذا الكتاب.

• يحرم على المسلمين الانتحار، سواء أكان ذلك مرة واحدة أو على مراحل مثل الإفراط في التدخين والإدمان على الكحول، ﴿... **وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً**﴾ (النساء ـ29).

• يحرم على المسلمين استهلاك المواد التي يمكن أن تؤثر على التفكير أو السيطرة على النفس. تدخل في عداد ذلك مواد كتلك التي تؤدي إلى الإدمان أو المخدرات، سواء أكانت طبيعية أم مركبة، ولو بأقل كمية، ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (المائدة ـ 90).

• من المواد الغذائية حرّم لحم الخنزير والدم وما نفق من حيوانات، تحريماً قطعياً وذلك في عدة آيات كريمة:

﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ ...**﴾ (البقرة ـ173).

﴿**حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ....**﴾ (المائدة ـ3).

﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ ...**﴾ (الأنعام ـ 145) ﴿ **إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ....**﴾ (النحل ـ 115) وفي كتابه «الحيوانات في الإسلام» (1989) عدد الحافظ المصري 87 مرضاً مقترناً بتناول لحم الخنزير.

• أما تناول لحم الحيوانات التي تقتات على النبات فهو مسموح، طالما جاء هذا اللحم من حيوانات تم ذبحها بعد ذكر الله. أي (حلالاً). ﴿**أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ** ....﴾ (المائدة ـ1).

يسمح للمسلمين أيضاً بتناول المطبخ المسيحي ـ ما عدا الكحول ـ ولحم الخنزير والنقانق التي يدخل الدم في تركيبها، ﴿**الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ**....﴾ (المائدة ـ5) شرط أن لا يذكر إلا اسم الله قبل ذبحها.

• يستنكر الإسلام العرافة (التنبؤ بالغيب) سواء أكان بصيغة التنجيم أو في قراءة الفنجان، ﴿**وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ**....﴾ (المائدة ـ 3).

• يسمح الإسلام بكفالة الأيتام ولكن لا يسمح بالتبني، ﴿**ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ** ....﴾ (الأحزاب ـ5).

• يتوجب على الرجال والنساء أن يرتدوا ثياباً لا توحي بأية إثارة جنسية. بالنسبة للنساء يعني ذلك أن لا يبدو منهن إلا الوجه واليدان والقدمان.

• يحرم الإسلام الموسيقى التي تثير الغرائز، أو تخدّر، أو تتضمن إيحاءات معينة، ويسمح بالموسيقى «الكلاسيكية» سواء أكانت غربية أم عربية، وكذلك العزف المفرح في حفلات الأعراس. ولترتيل القرآن الكريم وتجويده دون استخدام الموسيقى طابع روحي، مثله مثل لحن الأذان للصلاة، أو سماع الأدعية بصوت جهوري على الطريقة الصوفية.

• تنكر التعاليم الأخلاقية ـ التي تفكر بطريقة وقائية ـ رقص الديسكو، وكذلك الرقص المزدوج بين رجل وامرأة إلا إذا كانا زوجين.

• يُنكر الإسلام الوشم وثقب الجلد والأعضاء باعتباره يسبب جروحاً في الجسم، وكذلك عمليات التجميل، إن لم يكن الهدف منها إزالة تشوهات كبيرة.

• يُنكر الإسلام وضع الشعر المستعار ويعتبره تزييفاً. أما صباغ الشعر فهو ـ على العكس ـ مرغوب.

• وللحيلولة دون الرفاهية لا يستخدم المسلمون الصحون أو الملاعق المصنوعة من الذهب أو الفضة. ويحرم على الرجال التزين بالذهب أو لبس الحرير.

• على المسلم أن يطيل شعر لحيته شرط العناية به، ويجب قص الشوارب بحيث لا تغطي الشفة العليا.

• الختان بالنسبة للذكور من المواليد (اعتباراً من الأسبوع الأول) حسب سفر التكوين الفصل السابع عشر. «هذا هو عهدي الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك يختن كل ذكر منكم» معمول به في الإسلام أيضاً. يتم ذلك في تركيا حتى سن التاسعة أو الحادية عشرة. (أي عدد فردي) وهذا يتناقض مع العرف الإسلامي، وهو علاوة على ذلك خرافة.

• والختان يتناسب مع الوصايا الإسلامية المتعلقة بالطهارة وإزالة شعر العانة عند الرجل والمرأة على السواء (كل 40 يوماً).

- الختان بالنسبة للإناث ممنوع منعاً باتاً باعتباره يشوه الجسد.
- يتناول المسلمون طعامهم باليد اليمنى (النظيفة).
- يمنع الإسلام بشكل قطعي التلاعب بالجينات الوراثية للإنسان، ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ.....﴾ (النساء ـ 119) وهذا ما ينطبق أيضاً بشكل طبيعي على الاستنساخ. وبعكس ذلك يمكن أن يكون التلاعب بالجينات مسموحاً للحيلولة دون الأمراض الوراثية أو علاجها.
- أما بالنسبة لنقل الأعضاء فليس هناك أساساً ما يحول دونه. وموت المتبرع يبدأ من وجهة نظر إسلامية بموت الدماغ.

الإسلام وحقوق الإنسان:

لم يظهر اصطلاح حقوق الإنسان في أي كتاب مقدس، خاصة وأن الأفراد - باعتبارهم من خلق الله - لا يمكن من وجهة نظر دينية اعتبارهم حاملين لحقوق؛ لأن الله تعالى فقط يمنح أو بالأحرى يضمن الحقوق.

لذلك لم يكن بالإمكان أن يقوم تصور لحقوق الإنسان كالذي اعتمد على إعلان حقوق الإنسان الأميركي والفرنسي في القرن الثامن عشر إلا في المناخ الفكري للتنوير.

بالرغم من ذلك فليس من الصعب إثبات أن جميع حقوق الإنسان الكلاسيكية بمفهوم الاتفاقات الدولية للأمم المتحدة والمجلس الأوروبي قد وردت قانونياً منذ 1400 سنة في القرآن الكريم على شكل حقوق

انعكاسية مثل: تحريم قتل الإنسان الذي يمكن أن نقرأ فيه حق الحياة. والشيء نفسه ينطبق على حق الملكية (تحريم السرقة) أو حق المشاركة السياسية (الدعوة إلى الشورى).

وبما أن نظام الفقه الإسلامي قد توجه منذ البداية نحو إلغاء العبودية، فلا يمكن الحديث إلا عن نقطتي خلاف بين نظام حقوق الإنسان الغربي والإسلامي:

• فالقرآن ينص على بعض العقوبات الجسدية الصعبة بما فيها عقوبة الموت. ﴿**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (المائدة ـ33) وكذلك ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (المائدة ـ 38).

﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ....**﴾ (المائدة ـ45).

وكذلك: ﴿**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ...**﴾ (النور ـ 2).

• تنطلق الحقوق العائلية في الإسلام من تقسيم عادل للأدوار بين الزوج والزوجة، فهو مختلف نتيجة اختلافات متعلقة بالجنس، جسدية ونفسية.

بشكل عام يقدم نظام الفقه الإسلامي نفسه في مجال حقوق الإنسان كمكمّل للنظام الغربي.

شريعة و/أو/ صوفية:

مع أن التشريع الإسلامي لا يتدخل بشدة في مسار الحياة اليومية، كما هو الحال عند اليهود المتشددين. مع ذلك يتضمن النموذج المعياري ـ أيضاً في الإسلام ـ خطر التلمدة. وعلى أية حال فإن رجل الدين الإسلامي هو بالضرورة رجل قانون.

مقابل الحرفية الرزينة لرجل القانون، وصرامة القانون، كان هناك في التاريخ الإسلامي منذ البداية تقريباً شكلان مترابطان لردة الفعل، وهما:

الإسلام الشعبي والتصوف الإسلامي.

الإسلام الشعبي:

المقصود بعبارة «الإسلام الشعبي» هو إسلام الإنسان البسيط المرتبط بالطبيعة، واختلطت عليه الصورة التجريدية الإسلامية للإله وغياب الأرواح الوسيطة. لقد أدت حاجته إلى لمس المقدس، والقدرة على تسخير الوسطاء، من أجل أغراضه - بالضرورة - إلى وجود إسلام غير متجانس، تخترقه ـ حسب المناطق ـ تصورات وخرافات شامانية وهندوسية ومسيحية أو ما قبل إسلامية. وهكذا تنشأ أنماط سلوك فولكلورية يحرمها الإسلام، مثل: الأولياء وطقوس المقابر والسحر الأسود والعرافة وحالات النشوة الدينية باستخدام المخدرات، والإيمان بمنجزات

أشخاص يلجؤون إلى الجن.﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن ـ 6). كل ذلك يمكن حشده في علم دراسة ظاهرة الإسلام، لكنها ليست من الإسلام. ويدخل في عداد الإسلام الشعبي أيضاً تعظيم أهل بيت الرسول معتمدين في ذلك على الآية الكريمة:﴿ ...إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب ـ 33). حيث يطلق على الواحد منهم اسم «شريف»، إذا ما كان من نسل حفيده الحسن، واسم «سيد» إذا ما كان من نسل حفيده الحسين. فحتى الجيل الأربعين يمكن التبرك بهم. ففي الصلوات اليومية، يلتمس المصلي البركة من الله للنبي وآله ـ ومن بينهم سلالته الحالية ـ ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (الشورى ـ23).

الصوفية:

نشأ التصوف الإسلامي كحركة تقوى، جعلت محبة الله تتقدم على الخوف منه، وأدت إلى جعل مضامين العبادة تتغلغل إلى داخل الإنسان. بهذا المفهوم كان الرسول ـ الذي قضى ليالي كاملة وهو واقف يصلي ـ أيضاً «صوفياً». وكذلك حسن البصري ورابعة العدوية وغيرهم من المسلمين الأوائل. فقد أفنوا ذاتهم ابتغاء وجه ربهم، ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً....﴾ (الرعد ـ 22). ﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ﴾ (الليل ـ 20). ما من أحد منهم اعتقد أن بإمكانه أن يتحرر من الشريعة، بل على العكس، فقد كان الالتزام بالقانون أساس إيمانهم.

هناك أدلة في القرآن الكريم على التقوى ذات الصبغة الصوفية. فآية النور تشبِّه نور الله تعالى بتلك الظاهرة الأساسية التي تجعل الرؤية واللون والنمو ممكناً، بعضها مرئي وبعضها غير مرئي، وتقدم قيماً فيزيائية ثابتة، سواء بسرعتها القصوى (سرعة الضوء) أم من حيث أصغر حزمة طاقة (حسب ماكس بلانك) بعد أن عُرفت «نظرية الكم» في الفيزياء الحديثة.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور ـ35).

وبخلاف الصوفية الإسلامية المبكرة فقد ظهر في حقبة لاحقة ـ وبخاصة بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر الميلاديين ـ نمط صوفي أعمق فلسفة وفكراً، كان مطبوعاً إلى حد كبير ـ مثل بلوتين ـ بوجهات نظر فلسفية أفلاطونية جديدة وعرفانية (غنوسطية) جعل من قضية التوحد مع الله هدفاً لاجتهاده الصوفي.

وفي الوقت نفسه أصبح «الطريق» نحو الكمال، ممنهجاً من خلال البناء الفكري الصوفي، أو منظماً من خلال «الطرق» التي كانت تتطلب أقصى درجات الخضوع لشيخ الطريقة بالرغم من الآية الكريمة:﴿... وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة ـ 31). كانت التنظيمات الدينية تتميز في اللباس وفي طريقة أداء نوبات «الذكر» التي تمارس على شكل حلقات دائرية، بصوت منخفض أو عالٍ بمصاحبة الموسيقى أو الإيقاع بحركات الجسد.

حافظ عدد كبير من هذه الأخوات الصوفية التي قامت في العصور الوسطى على استمرارها: منها القادرية ومؤسسها العراقي عبد القادر الجيلاني (1088- 1166) والنقشبندية التي تأسست أصلاً في آسيا الوسطى، والمولوية (التي تؤدي رقص الدراويش) التي أسسها جلال الدين الرومي (1207-1273) وأظهرت ـ من خلال جذب الكثير من غير المسلمين والنساء ـ ديناميكية جديدة، ومارست قوة جذب قوية على عناصر أكاديمية غربية مثقفة انضمت إلى هذه الطرق. بالإضافة إلى ذلك هناك الكثير من الحلقات الصوفية التي تشكلت فيما بعد. لاقى بعض هذه الحلقات مثل: (التيجانية لمؤسسها أحمد التيجاني «متوفى عام 1830» والأحمدية مؤسسها الشيخ أحمد العلوي «متوفى عام 1934» وكلاهما من الجزائر)، صدى وصل حتى إنكلترا والولايات المتحدة وإفريقية السوداء.

اشتهر بشكل خاص بين المسلمين ـ وغير المسلمين ـ اثنان من الصوفيين الفرس تم إعدامهما باعتبارهما من المجذفين والهراطقة وهما: حسين منصور الحلاج (857- 922) الذي بدأ يشعر بتوحده مع الله بقوله «أنا الحق»، وكذلك شهاب الدين السهراوردي (-1191 1155) وهو مؤسس صوفية نورانية تأملية.

الشيء الذي لا جدال فيه هو أن «الشيخ الأكبر» للتصوف الإسلامي هو الأندلسي الذي توفي في دمشق، محيي الدين ابن عربي (1165-1240) والذي ما زال تأويله المتفرد للقرآن الكريم و تشدده مثار نقاش إلى الآن.

مثله مثل العديد من الصوفيين، اتهم ابن عربي من قبل المسلمين الذين ينتقدون الصوفية بالتكبر والتأمل الميتافيزيقي وإعادة تفسير القرآن الكريم بمفهوم أفلاطوني جديد وغنوسطي ومذهب وحدة الوجود على مبدأ: «أنا من أحبه، ومن أحبه هو أنا» (السنماني متوفى عام 1336). وهذا القول يعود بالدرجة الأولى إلى نظرية ابن عربي عن «وحدة الوجود». وحسب هذه النظرية تنطلق كافة الأفكار والأشياء تدريجياً من الله كفيض منه. وبالتالي فإن العالم أخيراً ليس إلا تصوراً غير موجود. وقد برر ابن عربي نظريته بمبدأ التوحيد الإسلامي.

إن التفريق بين الله والعالم الذي خلقه يؤدي إلى «الثنوية». ويرى المسلمون ذوو التوجه التقليدي في نظرية ابن عربي أخطاراً أخرى، فعدم وجود «المقابل» يجعل الصلاة غير ممكنة ويؤدي في نهاية المطاف إلى لا مسؤولية أخلاقية أي إلى اللاأخلاقية.

تخطى أحمد السرهندي (1564- 1624) طريقة ابن عربي بطرحه نظرية مقابلة حول «وحدة الشهود» يعتبر فيها أن وحدة الوجود، التي عرفها الصوفيون، هي رؤية خيالية تكهنية وليست وجوداً حقيقياً. من وجهة نظره ليس هناك خطر من وجود ثنائية، طالما أن المرء قبل بأن وجود الله الحتمي يختلف عن وجود الكون اختلافاً قطعياً. فالله هو «وجود أزلي» ومخلوقاته موجودة، إذن فهي ليست وهماً، ولكنها ليست سوى ظلٍ له «وجود ظلّي» ومن هنا لا يقر المسلمون المتعصبون بوجهة النظر القائلة بأن الله كل شيء. بل بأن كل شيء من الله، ويعتمدون على القرآن الكريم بأن الله هو الظاهر والباطن.

يجتاح العالم الإسلامي الآن شيئان: تيار متزمت وحاجة للعودة إلى التعاليم الأصلية وغير المحرفة للإسلام الأول. وكلاهما يتمثل في الطابع الوهّابي للإسلام السائد في المملكة العربية السعودية كما في الحركة الإسلامية المعاصرة.

يرفض هذا التيار بشقيه وبشكل متوافق كلاً من الصوفية، التي هي أقرب إلى اللاعقلانية، والميتافيزيقا العقلانية، وكلاهما يعتبر تجديداً غير مشروع في العقيدة.